

القدسُ في التاريخ (*)

مراجعة رضوان السيد

كتاب القدس في التاريخ مجموعة من المقالات لكبار الأساتذة من عرب وأجانب، قضى د. كامل العسلي ناشر الكتاب سنواتٍ في جمعها وتحريرها وطبعها حتى صدرت قبل عدة أشهر. والكتاب ذو نهجٍ تاريخيٍّ يدرس مدينة القدس من خلال الحقب التاريخية التي انقضت عليها.

أمّا فرانكن H.J.Franken كاتب المقال الأول في الكتاب عن فلسطين والقدس بالذات في الحقبة البرونزية بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق.م؛ فهو أستاذٌ متقاعدٌ لدراسات العهد القديم وآثاره بجامعة لايدن بهولندا. وأمّا ماندنهول G.E.Mendenhall كاتب المقالة الثانية عن القدس من ١٠٠٠ ق.م. وحتى الميلاد فهو أستاذٌ متقاعدٌ للتاريخ القديم بجامعة ميتشيغن. وقد أوضح الكاتبان أنّ المعلومات عن القدس في هاتين الحقتين تأتي من المصادر الكتابية (العهد القديم، والكتابات المصرية، وكتابات الشعوب الأخرى الغازية أو المتوطنة)، ومن البحوث والحفريات الأثرية. وحسب الباحثين فقد توالى على القدس حتى الحقبة البرونزية المتأخرة الشعوب التالية: العموريون، والهكسوس، واليبوسيون، والعبريون. ويبدو أنّ اليبوسيين الذين أعطوا المدينة طابعها الباقي

شعبٌ من الشعوب الكنعانية. يبدو ذلك من أسماء آلهتهم: سالم وصَدَق وإيل وجِه. ويبدو أنَّ داود عندما أعاد تنظيم المملكة سياسياً تبنى واستوعب تقاليد اليوسيين الدينية وبخاصة تلك المتصلة بمقام الملك في الدين. أما بالنسبة للحقبة البرونزية المتأخرة فإنَّ ماندهول يذكر أنَّ داود اختار موقع القدس عاصمةً لمملكته هرباً من خلافات تحالف يهودا وبنيامين إذ كان الموقع محايداً. لكنه وهو يفعل ذلك استوعب تقاليد اليوسيين الدينية والسياسية الذين كانوا هم سكان المدينة عندما فتحها وقرر اتخاذها عاصمة. ثم يقصُّ الكاتب بإيجاز تاريخ مملكة داود وسليمان وأعقابها حتى الاستيلاء المصري ثم البابلي، والسبي البابلي عام ٥٩٦ ق.م. ثم عام ٥٨٦ ق.م. وعاد المنفيون بمرسوم من الملك الفارسي قورش عام ٥٣٩ ق.م. وبعد ما يزيد على قرنٍ من الفوضى ومحاولات الإصلاح سيطر الإسكندر ثم من بعده البطالمة والسلوقيون حتى جاء الرومان. وفي المقالة الثالثة بالكتاب يتحدث جون ويلكنسون J.Wilkinson عن القدس في العهدين الروماني والبيزنطي حتى سقوط القدس بيد العرب المسلمين عام ٦٣٧ م. أهم تطورات الحقبة الرومانية إنهاء الممالك اليهودية، وتدمير الهيكل عام ٧٠ م. وأهم تطورات الحقبة البيزنطية التحول التدريجي للناس بفلسطين إلى النصرانية.

عن المرحلة الإسلامية المبكرة التي امتدت أربعة قرون بين القرنين السابع والحادي عشر الميلاديين يتحدث الأستاذ المعروف الدكتور عبد العزيز الدوري. فقد احتلت القدس منذ البداية مقاماً سامياً في الإسلام باعتبارها أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين. وقد ذكرها القرآن باعتبارها مسرى النبي ﷺ، والأرض المباركة والمقدسة. وقد انشغل الدكتور الدوري بتاريخ فتح المقدس، والروايات حول العهد مع سكانها. ثم كان حديثٌ عن بناء مسجد قبة الصخرة، والكتابات القرآنية التي عليه من جانب عبد الملك بن مروان. وتبع ذلك حديثٌ عن عناية العباسيين ببيت المقدس، وما يتصل بذلك من علاقات مزعومة من جانب شارلمان بهارون الرشيد من أجل النصارى بشكل عام وبيت المقدس بشكل خاص. ولم ينس د. الدوري أن يعرض للنوع الأدبي

المعروف بفضائل بيت المقدس والذي يرى أن مروياته انتشرت أيام بني أمية . وفي ستينات القرن الرابع الهجري سقطت بيت المقدس في قبضة الفاطميين الذين كانت لهم نشاطات عمرانية فيها ثم خضعت للسلاجقة .

وكانت معالجة تاريخ القدس في ظل الصليبيين من نصيب الأستاذ الدكتور مصطفى الحيارى ، أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة الأردنية ، وصاحب الدراسات المعروفة في تاريخ فلسطين الإسلامي . يفتح الحيارى معالجته للحقبة بالحديث عن زيارة ابن العربي الاندلسي لبيت المقدس عام ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م وملاحظاته عن الحالة العلمية والاجتماعية فيها .

وقد عاد الفاطميون لأخذ القدس من يد التركمان عام ١٠٩٨م . لكنهم فوجئوا بظهور الفرنجة أمام أسوار القدس السيئة التحصين في يونيو ١٠٩٩م . ودافع الجند القليلون داخل الأسوار عن المدينة بكل وسيلة لكن الفرنجة استطاعوا اقتحامها بعد شهر من الحصار ، وقتلوا كل من وجدوه فيها حياً تقريباً . وحل محل سكانها الأصليين المسيحيون اللاتين ، وبعض المسيحيين الشرقيين . بل إن الباحث يذكر أن ذلك حدث في سائر المدن الفلسطينية التي وقعت في يد الفرنجة . وقد نجم عن ذلك تغير راديكالي في الأوضاع الاجتماعية والسياسية إذ حلت طبقات وفئات جديدة في مملكة القدس محل المعهود في المدينة الإسلامية التقليدية . وقد تحدث الباحث طويلاً عن التنظيم الإداري ، والحياة الاجتماعية في القدس الصليبية ليصل بعد ذلك إلى بدايات رد الفعل الإسلامي . كان الخوف الرئيسي لدى Bertrand of Blaquefort رئيس فرسان الهيكل ، وكذا لدى وليم الصوري أن يقوم «أمير» مسلم بتوحيد القاهرة ودمشق فتنتهي الصليبية بالشرق . وكان هذا بالضبط ما أنجزه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي تقدم بعد التوحيد للتحرير فهزم الصليبيين بحطين في ٤ يوليو ١١٨٧م ، ثم تقدم فحرر القدس بعد ثلاثة أشهر . لكنه هذه المرة دخل بصلح إلى المدينة ، ولم يرتكب المذابح التي ارتكبتها الصليبيون قبل ثمان وثلاثين عاماً . وقد قام صلاح الدين بأعمال جبارة لإعادة الإسلام في المساجد والمدارس بعد رحيل الصليبيين . لكن المآسي لم تنته فقد اشتد الخوف من أن يعود الصليبيون

إلى القدس بعد احتلالهم دمياط فقام الملك المعظم عيسى بهدم أسوار القدس، وترحيل سكانها عام ١٢١٨م وبقيت لعدة عشرات من السنين شبه مهجورة وبخاصة أن الملك الكامل الأيوبي قام عام ١٢٢٩م/٦٢٦هـ بتسليم المدينة بدون قتالٍ للإمبراطور الألماني فريدريك الثاني باستثناء منطقة الحرم لعجزه عن الدفاع عنها. وعاد ملك الكرك الأيوبي الناصر داود لاحتلال المدينة عام ١٢٣٩م، ثم عاد إليها الصليبيون عام ١٢٤٣م ليأخذها منهم الخوارزميون نهائياً عام ١٢٤٤م.

وكتب دونالد ليتل D.Little الفصل الخاص بالقدس الأيوبية والمملوكية. فذكر في البداية فتح صلاح الدين لها، وخطبة ابن التركي في استردادها من على منبر الأقصى. ثم تحدث عن مصائرهما بين الأيوبيين والصليبيين ثم بين أمراء الأيوبيين ومملوكهم حتى قيام الدولة المملوكية التي أزال الخطر الصليبي نهائياً بتحرير باقي المدن الساحلية من الصليبيين. وقد اهتم المهاليك بالقدس من الناحية العمرانية والدينية، لكن أهميتها الإدارية والسياسية تراجعت بشكل ملحوظ.

أما كامل العسلي ناشر الكتاب فقد كتب الفصل الخاص بالقدس العثمانية. ويبدأ تاريخ القدس العثمانية بزيارة سليم الأول لها في ٢٩ ديسمبر ١٥١٦م حيث سلمه أشرف المدينة مفاتيح الحرمين القدسي والخليلي. لكن أزهى عصور القدس العثمانية كان عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦م) الذي أنشأ فيها مؤسسات وأوقافاً كثيرة، وشجع كل أنواع العمران الديني والخيري، وأعاد بناء أسوارها التي هدمها المعظم عيسى. ومنذ مطلع القرن السابع عشر استقرت إدارة القدس باعتبارها سنجقاً تابعاً لولاية دمشق. وحاكمها سُمي سنجق بيه أو أمير لواء. ومن شخصيات المدينة المهمة القاضي والمحاسب والمفتي ونقيب الأشراف وشيخ الحرم. وفي القرن السادس عشر كان عدد سكان المدينة أربعة عشر ألفاً تقريباً منهم ألفان من المسيحيين واليهود.

واهتم الأستاذ المعروف ألكسندر شولخ (توفي عام ١٩٨٨م) A.Schoelech بالقدس في القرن التاسع عشر بادئاً بالاقتحام المصري للشام عام ١٨٣١م

بقيادة إبراهيم باشا. والملاحظ في بحث شولخ بدايات الصراع العربي الصهيوني المتمثل في إحصائيات اليهود المزعومة عن سكان القدس مطالع القرن العشرين، والتي ردّ عليها شولخ من واقع دفاتر الإحصاء العثماني. ثم يتطرق شولخ إلى المؤسسات التربوية والعمرانية التي نشأت بالقدس في المرحلة العثمانية المتأخرة. وبالإضافة لذلك ظهور شخصية فلسطين كبلدٍ موحدٍ بتوحيد سناجق البلاد الثلاثة (القدس ونابلس وعكا) في ظل والٍ أو حاكمٍ واحد. وإعطاء سناجق القدس وضعاً خاصاً. وتحدث شولخ بعد ذلك عن التطور المدني (البلدي) والسياسي بالقدس وفلسطين، ثم تحدث عن أسرها الرئيسية وبخاصة أسرة الخالدي التي ظهر فيها النهضوي والمصلح المعروف يوسف الخالدي.

وكانت الدراسة الختامية في الكتاب لمايكل هدسون M.Hudson المختصّ المعروف بجامعة جورجتاون بالتطورات الحديثة في الشرق الأوسط. وموضوع الدراسة متغيرات القدس في القرن العشرين (١٩١٧ - ١٩٨٧) منذ الاحتلال البريطاني، وحتى الاحتلال الصهيوني (١٩٦٧) وإلى ضمّ القدس، والتطورات السياسية والسكانية، والموقف الدولي من ضمّ القدس.

إنها رحلة شاقة وصعبة خلال تاريخ القدس وفلسطين الطويل. رحلة تمثّل المساعي المستمرة لأمتنا من أجل الاحتفاظ بالقدس وفلسطين دفاعاً عن أرضها ووحدتها ومستقبلها.

